القناعة بأن بريطانيا هي، ايضاً، عدو، وانها العدو الاول، وذلك خلافاً لما زرعته قيادة الحركة الوطنية من افكار بأن الصهيونية هي العدو الاول. وقد اقترن هذا وذاك، بدورهما، بتبلور الدعوة الى مقاومة الوجود البريطاني. وهذا التبلور، بأوجهه المتعددة، التي اشرنا اليها، هو الذي افسح في المجال لانتقال مقاومة الانتداب من انتهاج الوسائل القانونية الى الوسائل التي يدينها القانون، فيما بعد، وذلك في عملية متفاعلة يؤثر كل عنصر من العناصر الداخلة فيها في الآخر، ويحفزه.

واذا صرفنا النظر عن دعوات غير مثابرة وعن حوادث متفرقة برزت في السنوات العشر الاولى من الاحتلال البريطاني، فيمكن أن نرى أن الاتجاه نحو مقاومة الانتداب وتأكيد العداء لبريطانيا قد برز، بصفته تياراً مؤثراً، وان يكن غير غالب، في الحركة الوطنية، مع احتدام الازمة الاقتصادية، أواخر العشرينات وأوئل الثلاثينات. ويروي شاهد عيان آخر من قادة الحركة الوطنية ان العام ١٩٣١ هو الذي شهد «التوجه نحو الدعوة النضالية ضد الانجليز والتنبيه الى ما غلب على الحركة الوطنية من فتور وميوعة واكتفاء بالصهيونية»[١٢٥]. والى هذا التطور، يمكن أن ننسب نشأة حزب الاستقلال العربي في فلسطين، في العام ١٩٣٢، وكذلك تجربة الشيخ عزالدين القسام في انشاء تنظيم سري للعمل المسلح ضد الاحتلال البريطاني، في النصف الاول من الثلاثينات.

فحزب الاستقلال هو أول الاحزاب القومية، وبرنامجه ينص، صراحة، على الغاء الانتداب ووعد بلفور[١٢٦]. والاحزاب القليلة الاخرى، التي نصت برامجها صراحة على الغاء الانتداب، تأسست بعده. وحزب الاستقلال هو الذي لاحظ، كما ذكر بيان تأسيسه، ما طرأ على موقف قيادة الحركة الوطنية من تطور ايجابي باتجاه رفض الانتداب ومقاومته، دون ان يفوته التنديد بما يعتور هذا الموقف من غموض وتردد. فالبيان ينص بهذا الصدد: «اذا كانت الحركة الوطنية وقفت، في أدوارها الاخيرة، موقف الكفاح، فلم يكن ذلك منها، في الاعم الاغلب، موقفاً صريحاً لا مواربة فيه»[١٢٧]. ولهذا طمح مؤسسو الحزب الى «القيام بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسي استقلالي يكافح الاستعمار وما جرّه من نكبات، كفاحاً شريفاً بلا مداورة ولا مواربة»[١٢٨].

وفي تزامن مع نشوء حزب الاستقلال، هذا، كشفت تجربة القسام عن تبلور الاتجاه لايصال الكفاح الوطني ضد الاحتلال البريطاني الى درجة الثورة المسلحة المنظمة.

بعد حزب الاستقلال، جاء الحزب الذي ضم المعارضة النشاشيبية الميّالة الى مهادنة البريطانيين والى التعاون معهم، وهو حزب الدفاع الوطني الذي تأسس في آب (أغسطس) العام ١٩٣٤[١٢٩]. وعلى الرغم من موقف مؤسسيه، فقد نص دستور الحزب، مجارياً الجو الذي كان تبلور في البلاد، على «السعي لاستقلال فلسطين، استقلالاً يكفل لها السيادة العربية وعدم الاعتراف بأي تعهدات دولية تؤدي الى أي سيطرة أجنبية أو نفوذ خارجي أو وضع سياسي أو اداري يمس ذلك الاستقلال»[١٣٠]. وهو نص يعني، بدرجة كافية من الوضوح، عدم الرضى، أو، اذا أخذنا بالاعتبار الوضع العام لهذا الحزب، عدم الجرأة على اظهار الرضى عن وعد بلفور وصك الانتداب. ثم جاء حزب آخر، هو حزب الاغلبية، وقد شكله المجلسيون الملتفون حول الزعامة الحسينية، وهو الحزب العربي الفلسطيني الذي أعلن عن تأسيسه في آذار (مارس) ١٩٣٥[١٣١]. هذا الحزب كان قانونه صريحاً ومباشراً، حين جعل اولى غاياته «استقلال فلسطين ورفع الانتداب»؛ كما جعل ثانية الغايات «المحافظة على عروبة فلسطين ومقاومة تأسيس وطن قومي لليهود»[١٣٢].

أما الاحزاب الاخرى، الاقل شأناً، التي تأسست بعد حزب الاستقلال، فقد تفاوتت مواقفها